

طبانة حلق الوادي بمدينة الحراش (الفترة العثمانية)

اكتشاف و محافظة علي تراث أثري و رد الاعتبار

عثمان مفتاح

المقدمة :

اهتمت الأمم و المجتمعات منذ القديم على أن توفر لنفسها جانباً هاماً في حياتها، المتمثل في الأمن و الاستقرار، و الذي بدورها لا يمكن لأي مجتمع أن ينمو. و يتطور و ينعم بحياة الهدوء. و قد عمل المسلمون بتزويد مدنهم الجديدة أو التي وسعوها و دفعوا بعجلة نموها مشرقاً و مغرباً بجملته من المرافق ذات الغرض الدفاعي المتمثل في سياج الأسوار و الخنادق، و حصنوا مداخلها، و لم يكتفوا بتحسين المدن بل وجهوا عنايتهم إلى حماية الثغور و تخوم الدولة بإنشاء سلسلة من الحصون و الطبانات (1).

فعلى غرار المدن الساحلية للبحر الأبيض المتوسط ، عرفت مدينة الجزائر منشآت دفاعية تستجيب لمبدأ الدفاع عن النفس و حماية الأرواح و الممتلكات من الاعتداءات الخارجية التي يمكن أن تهدد سلامتها و استقرارها. فقد كانت مدينة الجزائر منذ أن أنشأها بلكين بن زيري محاطة بأسوار، هذا ما يذكره أغلب من كتب عنها من رحالة و جغرافيين منذ القرن العاشر ميلادي "10م" حتى القرن الرابع عشر ميلادي "14م"، فبالنسبة للقرن العاشر ميلادي يذكر ابن حوقل أن المدينة تقع على البحر محاطة بسور (2) ، أما البكري الذي تعود كتاباته للقرن " الحادي عشر ميلادي " 11 م " فيتحدث عن مينائها المحمي جيداً و الذي يرتاده بحارة إفريقيا و اسبانيا و بلدان أخرى ، حيث يوجد به عنصر و عين من الماء العذب كما كان يعلو مدينة الجزائر الحصن الرئيسي المعروف بالقصبة القديمة الذي أنشئ في النصف الأول من القرن الرابع عشر وفي القرن السادس عشر "16 م" (3) ، زار ليون الإفريقي مدينة الجزائر و تحدث عن أسوارها قائلاً أنها كانت رائعة للغاية و مشيدة بحجارة كبيرة . فقد ظلت مدينة الجزائر مهددة دائماً من الهجومات المسيحية الأوربية و خاصة الإسبانية طوال القرن (9 هـ / 15م).

(1) اليونيسف "نيكيتا" المدينة الإسلامية التخطيط المادي ترجمة أحمد محمد ثعلب، السيكومرو/فجر، اليونيسكو 1983م ص97.
(2) Bourouiba (R), L architecture militaire de L Algérie médiévale. Office des publications universitaires, L Algérie, 1983 Deuxièmes parties, p, 02,45.

(3) أمثال اليعقوبي "القرن 3 هجري/9م"، ابن حوقل " القرن 4هجري/10م"، البكري "القرن 5هجري/11م" و غيرهم .



كما أدت الانشقاقات و التوترات اللامنتهية بين دول المغرب الإسلامي إلى عدم الإستقرار ، واستغلت هذه الأجواء من طرف الإسبان (1) ، فاحتلوا معظم المدن الساحلية لبلاد المغرب كعنابة و بجاية ، و ارزيو و وهران .حاول الإسبان احتلال مدينة الجزائر وذلك ببناء حصن علي الجزر المقابلة لمدينة الجزائر حصن "البنين" (2).أدت هذه الأوضاع إلي استتجاد أهالي مدينة الجزائر و حكامها بالأخوة (بربروس) لدفع بلاء الاحتلال الإسباني عنهم (3) .

فكان أول ما قام به الأخوة بربروس هو إقامة تحصينات جاء في مقدمتها السور و الأبراج و الطبانات (البطاريات) التي لعبت دورا هاما في الدفاع عن مدينة الجزائر خاصة هذه الطبانات التي كانت موزعة علي مواقع إستراتيجية للواجهة البحرية لمدينة الجزائر بحيث تذكر لنا بعض التقارير العسكرية الحربية عن بسالة واستماتة هذه الأخيرة (الطبانات) فقد صدت في العديد من المرات عدة إنزالات بحرية معادية لوحدها بدون أن تتدخل الأبراج في إعانتها (4) .



(1) DHINA; A, Les Etats de l occident musulman aux XIV VIV XV sieles .Institutions

gouvernementales, O. P. U. Alger, 1984 p30

(2) CARA DEL AGUILA. L, Les Espagnols en Afrique. Les relations politiques et commerciales avec Régence d Algérie de 1786 a 1830. Doctorat 3eme cycle presntee a Bordeaux 1974. P 16

(3) Missoum (S). Alger a l'époque ottomane, la médina et la maison traditionnelle, Alger, I.N.A.S, 2003 P 34

(4) العسلي .ب. عروج وخير الدين بربروس , دار النفائس بيروت , 1973 م ص 93.

التعريف بالعمارة الدفاعية :

هي مجموعة من المنشآت وموانع اصطناعية تقام لتقوية موقع ما، وحمائته من الهجمات المعادية، والاستفادة من قوة الوحدة المتمركزة في الموقع المحصن إلي أقصى حد ممكن ومنع العدو من الاستفادة من إمكانية الإحراز علي أي تفوق⁽¹⁾. استخدمت التحصينات عبر التاريخ لمنع من الاقتراب من الموقع بسهولة ولهذه التحصينات بشكل عام قيمة قليلة إن لم تربط بنظام دفاعي محكم حيث هناك نوعان من التحصينات :

- . حصينات دائمة (ثابتة) : وغالبا ما تبني في أوقات السلم من الحجارة أو الطابية.

- التحصينات الميدانية(مؤقت) : و تقام حين يتوقع أنه فيه اشتباك مع قوات معادية مفاجئة وفي أماكن معينة و منها ظهرت الطبانات (البطريات) التي كانت عبارة عن متارس من الحجارة و الأتربة توضع من خلفها المدافع لكن بعد مرور الحملات الحربية و انتهاءها ، فكر القائمون علي هذا الشأن ان يجعلو من هذه المتاريس حصونا صغيرة ليست بحجم الأبراج الكبيرة و لا تحتوي علي مستلزمات العيش فكان بذلك ظهور الطبانات⁽²⁾.

الطبانة :

الطبانة هي تعريف لكلمة تركية الأصل "TOP HANEIN" وتعني البطارية، و هي مركبة من كلمتين "طوب" بمعنى المدفع و "خانة" بمعنى الحجرة أي حجرة المدفع⁽³⁾. و قد يطلق عليها في بعض النصوص التاريخية القديمة منها و الحديثة تسمية البطارية " BATTERIE " و هي ترجمة من اللغة الفرنسية يقصد بها كذلك الطبانة.

تختلف أشكال الطبانات في الفترة العثمانية من منطقة إلى أخرى ذلك حسب ما توفره لها تضاريس الموقع المنجزة عليه و كذا المهام الدفاعية المراد القيام بها، فنجد منها ما هي مفتوحة عند العنق و المنغلقة عند العنق، المستقيمة بإنكسارين عند النهاية، والمقوسة، والدائرية، و نصف دائرية، ما يلاحظ كذلك في الطبانات هو انعدام المرافق المعيشية من غرف و مطبخ و حمامات ... و غيرها إلا في بعض الحالات النادرة (طبانة سيدي فرج)⁽⁴⁾، و لذلك نجدها على مقربة من الأبراج أو

(1) الموسوعة العسكرية، رئيس التحرير. المقدم الهيثم الأيوبي، الجزء الأول من أ إلي ح، المؤسسة الوطنية للدراسة والنشر، بيروت، ص256

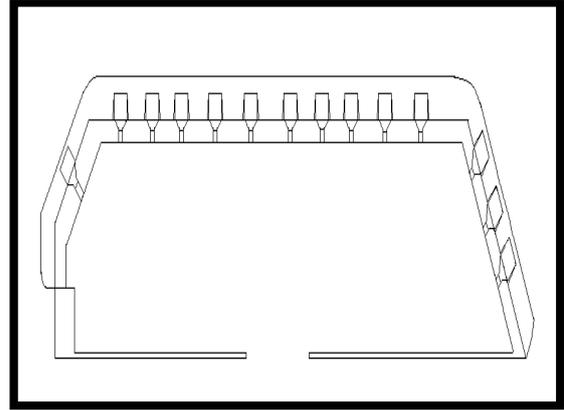
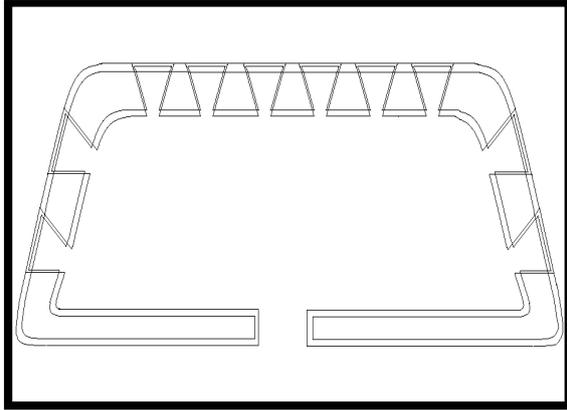
(2) الموسوعة العسكرية، نفس المرجع السابق، ص 257، 258.

(3) Bencheneb (Mohammed), Mots turcs et persans conserves dans. Le parler algérien, Jules Carbonel, Alger, 1922.p 57

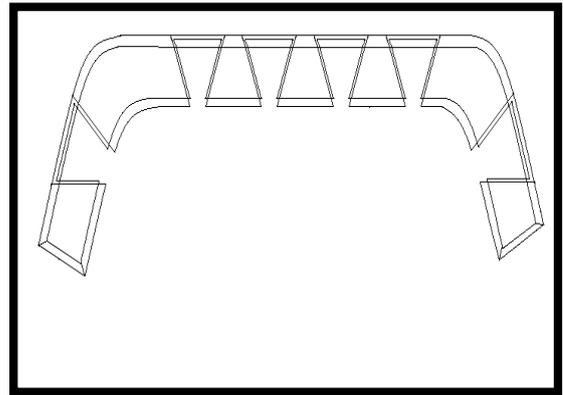
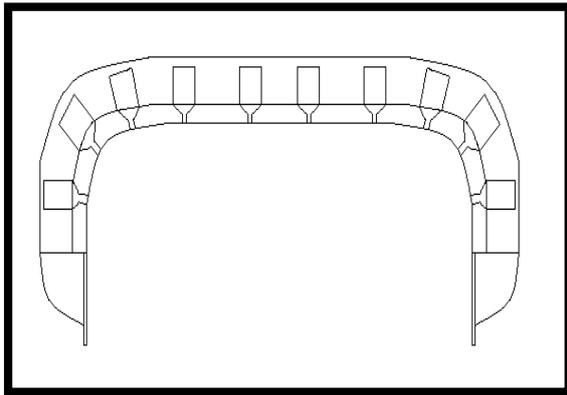
(4) خلاصي (علي) : المباني العسكرية العثمانية لمدينة الجزائر، مرجع سابق، 1979 م. ص169 .

من تكتات الجيش الإنكشاري لكي يستفيد العاملون عليها من الخدمات المعيشية اليومية من البرج الأقرب منها ، لكن يختار لها أماكن تتوفر على عامل المناعة و سهولة المرابطة.

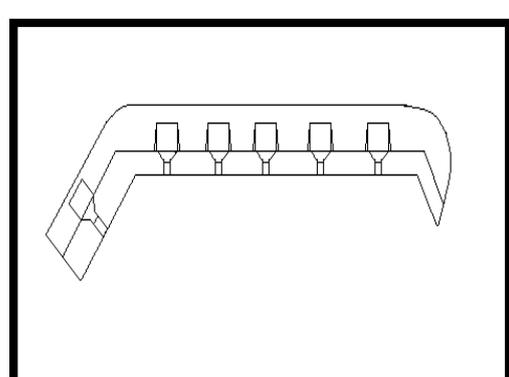
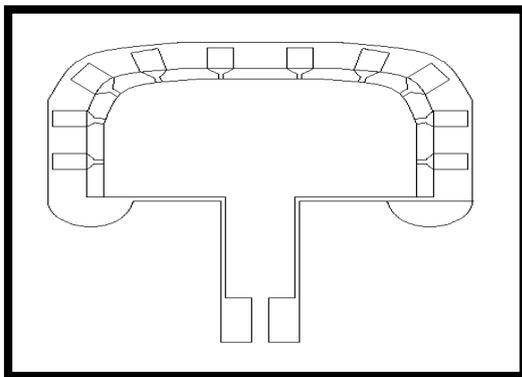
تختلف أشكال الطبانات في الفترة العثمانية من منطقة إلى أخرى ذلك حسب ما توفره لها تضاريس الموقع المنجزة عليه و كذا المهام الدفاعية المراد القيام بها، فنجد منها ما هي مفتوحة عند العنق و المنغلقة عند العنق، و المستقيمة بإنكسارين عند النهاية، و المقوسة، و الدائرية، و نصف دائرية .



بطاريات مغلقة العنق

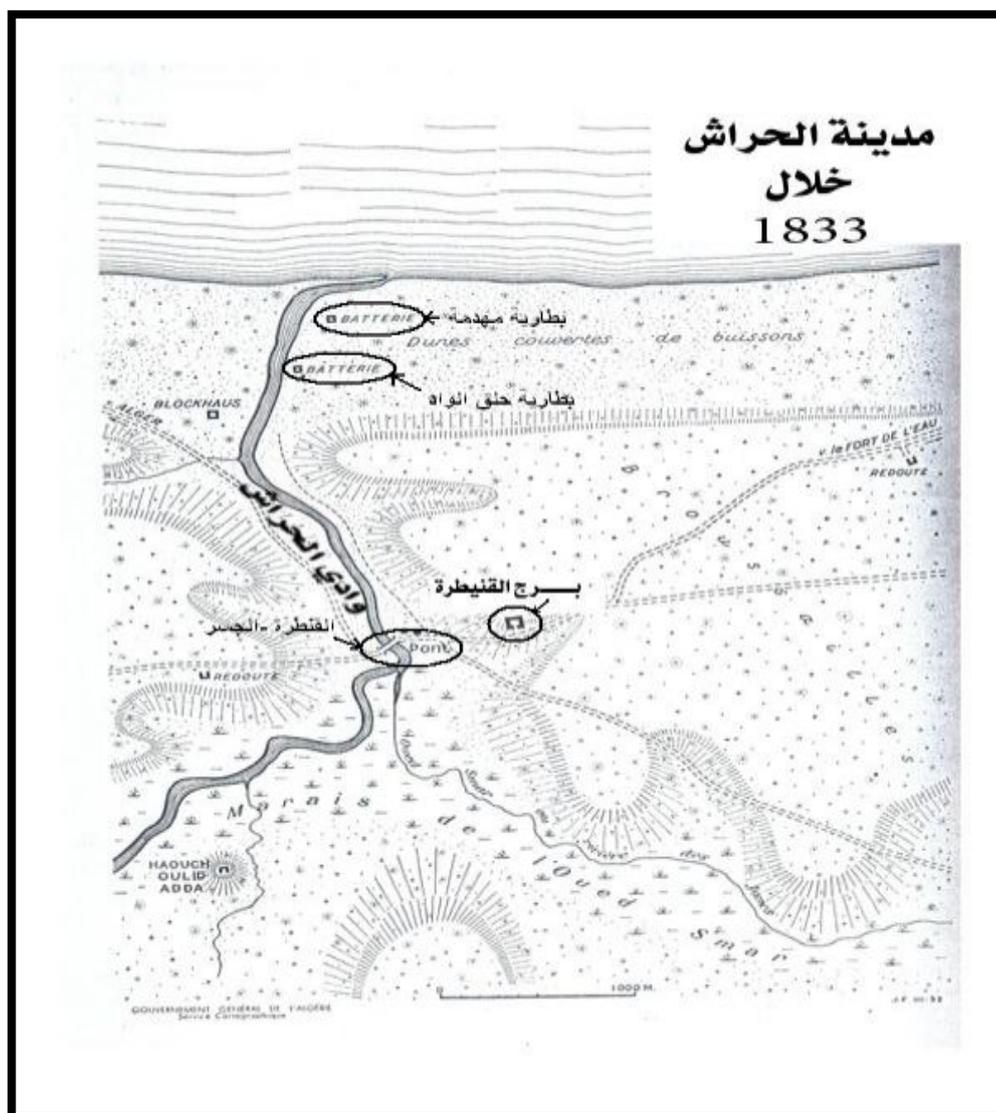


بطاريات مفتوحة عند العنق



بطاريات تتماشى حسب تضاريس المكان

لقد كانت تتخلل الحصون و أسوار مدينة الجزائر عدد هائل من الطبانات التي لعبت دورا فعالا في الحماية و الدفاع عن المدينة ، فهي تشرف تارة على الميناء و تارة أخرى على الأبواب ، كما تساهم في حماية الحصون القريبة منها⁽¹⁾. يذكر بيانشي " BIONCHI " على أنها كانت توجد بين باب عزون و رأس ماتيفو (تامنفوست) إحدى عشر بطارية، ستة (06) منها كانت تقع بين باب عزون و مصب وادي الحراش، فقد أشار كل من ديفو و كلاين بوجود طبانات عند مصب وادي الحراش⁽²⁾.



BOUTIN, Y. V, Reconnaissance des villes, forts et batteries d Alger, publier par escher, G, ed, H.Champion, Paris, 1927.p30.

(1)

BIANCHI, MX, "Relaion de larrivee dans la rade d Alge revue africaine N126. Année 1877.p411 (2)

فقد كانت تحيط بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية عدد هائل من الطبانات من كل النواحي البحرية منها و الغربية وكذا الشرقية و الجنوبية حتي قصر الداوي (القصبه) محاطة بسلسلة من الطبانات عددها ستة(06) من كل النواحي تتفاوت من حيث فتحات المدافع وكذا فتحات المدفعية⁽¹⁾.

أمثلة عن بعض طبانات مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية :

طبانات الناحية الغربية :

- طبانة مرسى الذبان .
- طبانة قانة الفول .
- طبانة الطابية .
- طبانة سيدي الكتاني .

طبانات سور المدينة الغربي :

- طبانة حمام الملح .
- طبانة سيدي رمضان .
- طبانة رحي الريح .
- طبانة سبعة تبارن (أرنووط مامي) .

طبانات سور المدينة الشرقي :

- طبانة باب جديد .
- طبانة لعسل .
- طبانة حومة السلوي .

طبانات سور المدينة الشمالي :

- طبانة المارستان .
- طبانة الأندلس .
- طبانة الجامع الكبير .

طبانة الناحية الشرقية :

- طبانة جنان الأغا .
- طبانة صهاريج الدوم .
- طبانة العلي .
- طبانتي واد كنيس .²⁾

(1) BOUTIN, Y. V, Reconnaissance des villes, forts et batteries d Alger, publier par escher, G, ed, H.Champion, Paris, 1927.p08.

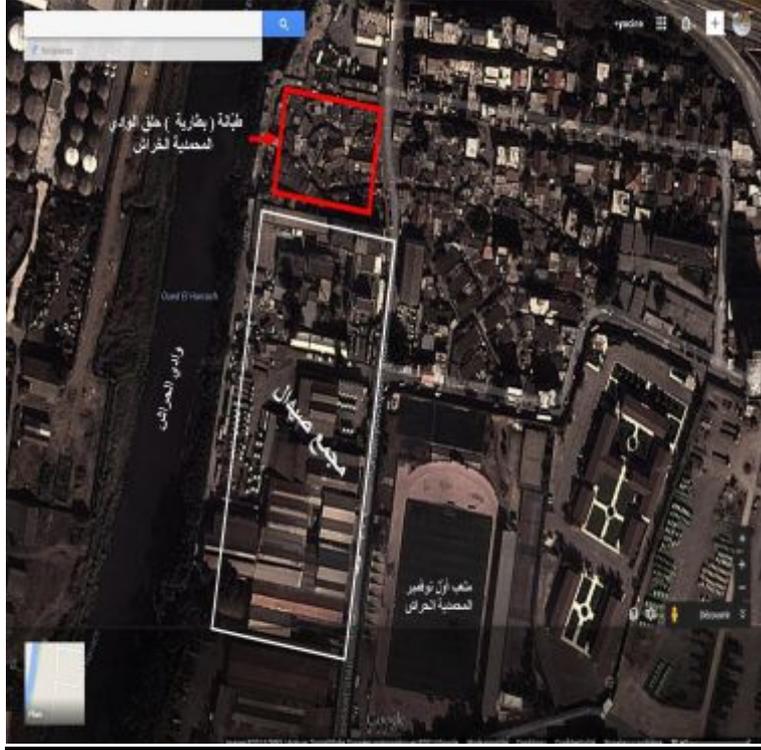
(2) DEVOULX (A), El djazaïr Histoire d une cite d Icosium a Alger, Edition critique présentée par, Bedredine Belkadi et Mustapha Benhamouche. ENAG, Editions , Alger, 2003, p12,153.

طبانة جنان الباشا .

- طبانة المجاهدين .
- طبانتي حلق الوادي .
- طبانتي الحمير (1).

موقع طبانة حلق الواد :

تقع طبانة حلق الواد علي يمين مصب وادي الحراش ببلدية المحمدية بحي كليمون فيل (حي الشرطة) ،بمحاذاة شارع يوسف بن خطاب(كردينال لفيجري سابقا) يحدها من الشرق شارع يوسف الخطاب ومن الغرب وادي الحراش و من الشمال مستودع لشاحنات و في الجنوب مجمع صيدال تبعد عن مدينة الجزائر بحوالي 12 كلم .



تاريخ بناء طبانة حلق الوادي :

أشار كل من ديفو و كلاين بوجود طبانات عند مصب وادي الحراش (2)، غير أن الاختلاف يكمن في عددها ، فبالنسبة لديفو يشير إلى وجود ثلاث بطانات، أما كلاين فيذكر لنا طبانتين فقط غير

(1) BOUTIN, Y. V, Reconnaissance des villes, forts et batteries d Alger, publier par escher, G, ed, H.Champion, Paris, 1927.p116.

(2) KLEIN, H, Feuilles d El -Djafair, collection du cahiers du vieil Alger, Alger, 1937.p71

أن الضابط روزي "ROZET" يروي أنه شاهد عام (1249 هـ / 1833 م) طابنتين حيث يذكر "عند مصب الجهة اليمنى من الواد ، نشاهد بطاريتين أقيمتا من أجل منع القوارب تزودها بالمياه الصالحة للشرب"⁽¹⁾، فعلى العموم فإن هذه البطاريات لم يتبق منها سوى واحدة يرجع تاريخ بناء هذه الطبانة إلى ما وراء أحداث الحملة الإسبانية التي قادها أوريلي على مدينة الجزائر سنة (1188هـ/1775م) ،حيث تعد ثاني أعظم حملة إسبانية بعد الحملة الفاشلة لشارل لوكان (948هـ/1541م)⁽²⁾.

لكن في الآونة الأخيرة وقع بين أيدينا تقارير ادلي بها الضابط أرميل الذي شارك في هذه الحملة و يعد هذا الأخير الذراع الأيمن للكونت أوريلي (في صبيحة يوم السبت تمركزت السفن الحربية في موقع تمكنها من قصف الطبانات المحيطة بمكان النزول ألا و هي طبانة وادي كنيس وطبانة مصب وادي الحراش إضافة إلى ذلك قام حوالي 8000 جندي بتسهيل عملية الإنزال فبدأت السفن بقصف الموقع وهذا ما سمح بالإنزال ما بين مدينة الجزائر و مصب وادي الحراش) ، وفي تقرير آخر يقول أرميل (ذهب القائد العام الكونت أوريلي بصحبتني الي السفينة التي تحمل اسم الشرق و علي متنها لاحظنا بكل وضوح الطبانات الجزائرية الموضوعة فوق الساحل الذي تقرر النزول اليه و قد تبين لنا بوضوح وجود طابنتين عند المصب فقرر القائد العام تخصيص سفينة حربية و فرقاطة لمواجهة كل طبانة)⁽³⁾.

فالزائر الي هذه الطبانة بعين المكان و الناظر اليها بالنظرة الأثرية لا يستبعد الفرضية الثانية (أي وجودها قبل الحملة) ،و ذلك راجع لطريقة إنجازها و المواد الإنشائية في بنائها (الطابية) ، علما أن مواد بناء برج القنيطرة تشبه إلى حد بعيد طريقة و مواد البناء المنجزة بها هذه الطبانة حيث يعود بناء برج القنيطرة سنة (1136هـ/1724 م) ، غير أن فترة ما بعد حملة أوريلي التي أشار إليها ديفو ، تتزامن مع فترة حكم الداوي بابا محمد بن عثمان (1179هـ/1766م - 1205هـ/1791م)، فلا يستبعد أن يكون هو الذي أمر ببناء هذه الطبانة⁽⁴⁾.

(1) ROZET (M). Voyage dans la Régence d Alger ou Description du pays occupe par l armé Français en Afrique, tom 3, Paris, 1833.p130

(2) Dlymple (Major); Expédition d O'Reilly en 1775, in Revue Africaine. 5annee (tom5) n, N°25,p33

(3) مجهول , غزوات عروج و خير الدين, تحقيق عبد القادر نور الدين, ط1 , الجزائر 1934 م ص 127

(4) عبد الرحمان بن محمد الجيلالي , تاريخ الجزائر العام , الجزء الخامس , دار الثقافة بيروت 1403 هـ / 1983 م ص 203

حيث يشاد عليه إبان فترة حكمه ، إدخال العديد من الإصلاحات في النظام الحربي ، و اجتهاده في إقامة الثكنات و الأبراج كبناء برج الجديد (1187هـ/1774م) و تجديد كل من برج السردين و برج رأس عمار بميناء الجزائر⁽¹⁾، أطلق على هذه الطبانات اسم طبانة رقم احدي عشر و اثني عشر (11 , 12) حسب كلاين، غير أن ديفو يشير إلى تسميتها بطبانات حلق الوادي أو فم الوادي⁽²⁾، وهو الحاصل كذلك عند زيارة موقع الطبانة، حيث اختير لها نقطة هامة تتمثل في مصب الوادي حيث يتصل بالبحر، و قد منحها الموقع المتوسط الارتفاع والإشراف على مصب الوادي من الجهة الشمالية و الوادي من الجهة الغربية و كذلك اليابسة من الجهة الشرقية، لذا تكتسي هذه الطبانة أهمية بالغة في حماية مياه الوادي التي تعتبر أهم نقطة تزود بالمياه الصالحة للشرب، و ذلك عند نزول السفن الحربية المعادية في هذه المنطقة التي يشهد لها بالعديد من الإنزالات "إن لم تكن كلها". لاتزال طبانة حلق الوادي محافظة علي بنيتها العامة رغم ما لحق بها من تشوهات سواء كانت بفعل العوامل الطبيعية أو بفعل يد الإنسان الذي شوه بعض ملحقات الطبانة لكن علي العموم ليست بالتشوهات التي تضر بالبنية الإجمالية للطبانة ، فقد أحيط بها سكنات فوضوية شوهت المنظر العام لها .



فطبانة حلق الوادي متكونة من ثلاثة اجزاء و هي :

- منصة المدافع
- مخزن البارود
- البئر

(1) عبد الرحمان بن محمد الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، الجزء الخامس ، دار الثقافة ببيروت 1403 هـ / 1983 م ص 204
(2) DEVOULX (A), El djazaïr Histoire d une cite d Icosium a Alger, Edition critique présentée par, Bedredine Belkadi et Mustaoba Benbamouche. ENAG, Editions , Alger, 2003, p158.

منصة المدافع :

وهي المساحة المخصصة ، حيث توضع المدافع المطلة عبر فتحات المدفعية وهي 08 فتحات موزعة كما يلي :

- 03 فتحات موجهة صوب الوادي .
- 03 فتحات موجهة صوب البحر .
- 02 فتحات للمدفعية موجهة صوب اليابسة .



ما يلاحظ علي هذه الطبانة هو غياب فتحات للبندقية و تستعمل كذلك هذه الأخيرة للمراقبة ، فالشكل الدائري للطبانة يمنح للمدفعين فيها إنسيابية و حركية أثناء أداء مهامهم فالشكل الدائري الجميل و طريقة إنجازها الرائعة توحى للناظر إليها الصرامة و الإنتظام و الدفاعية . كما تم علي سطح هذه المنصة اكتشاف الأرضية الأصلية وهي في غاية من الدقة في الإنجاز حيث تم تغطية الأرضية المقابلة لفتحة المدفع بالأجر الموضوع بطريقة السنبلية حيث ينضم الأجر علي الأرضية في وضعية حبات القمح في السنبلية باتجاه أفقي مائل من اليمين إلي اليسار مشكلا زاوية منفرجة ما بين 45 و 50 درجة كما يمنح هذا النوع من الأرضية مقاومة للإنزلاقات ، وتشبه هذه الأرضية أرضية طبانة قصر الداوي رقم 02 ، كما عثرنا في أرضية الطبانة علي حلقات حديدية عن شكل خرص مثبتة بإحكام كانت تعمل علي تثبيت المدفع عند قذفه للكرات الحديدية و رد الفعل الناجم عن ذلك ، أما الجزء المتبقي من السطح أي بين فتحات المدفعية وضعت حجارة رمادية زرقاء بطريقة متقنة ، هذه الحجارة معروفة بمقاومتها الميكانيكية و حملها للأثقال .



استعمل لبناء الطبانة كمادة إنشائية الطابية بنسبة 95% ، إلا أنه يوجد مادة الأجر ببعض أنحاء
الطبانة



مخزن البارود :

هو عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل طولها 10 م و عرضها 4,60 م مبنية بمادة الطابية وهي تخرق الأرض بحوالي 01 متر ، تعرض مخزن البارود إلي عدة تشوهات حيث سد الباب الأصلي و فتحت بابان علي الجوانب الأخرى ، كما لا تزال الطبانة تحافظ علي النافذة الأصلية المطلة علي البئر .



البئر : يعتبر البئر الجزء الثالث من الطبانة لكن و للأسف تم تدميره تدميرا يشمل الجزء العلوي الذي يظهر علي سطح الأرض حيث كان هذا البئر ذا الطراز العثماني الرائع ويعتبر جوهرة هذه الطبانة و حسب روايات شفوية فإن البئر كانوا يستفيدون من مياهه الصالحة للشرب إلي غاية الثمانينات من القرن العشرين .



قبل التهديم



بعد التهديم

ما يلاحظ بطبانة حلق الوادي هو خلوها من المرافق المعيشية للجنود و المتمثلة في المطبخ و الحمام و غرف النوم و المصلي ،ذلك هو ميزات الطبانات بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية حيث لاتحتوي هذه الأخيرة علي أي مرفق معيشي لكن قريبا من الأبراج و التكنات العسكرية يوفر للجنود القائمين عليها أغلب مستلزمات العيش، ذلك هو حال طبانة حلق الوادي الذي كان جنودها يستفيدون من الخدمات المعيشية من إفطار و حمام و مبيت ببرج القنيطرة الذي لايبعد عن الطبانة سوي 900 متر .

أطلق علي طبانة حلق الوادي بعد الاحتلال الفرنسي سنة (1246 هـ/1830 م) للجزائر رقم 11 و 12 و في سنة 1850 م ، تم استئجارها (طبانة) من طرف معمرين خواص ⁽¹⁾، و حسب روايات شفوية و بعض الملامح الأثرية ⁽²⁾، التي عثرنا عليها بالموقع داخل سطح الطبانة التي حولت إلي إسطل كما حول مخزن البارود إلي غرف و تم كذلك بناء جدران إضافية حول الطبانة إلي إن أصبح محيط الطبانة يشبه حي سكني ، الي غاية ترحيلهم في يوم الأربعاء 25 جوان 2014 إلي سكنات جديدة و تم استرجاع الطبانة و إنقاذها من التهديم .



فقد كان تتبعنا لمصير هذه الطبانة منذ سنة 2001 م ،حيث تم اكتشافنا لها ، حينها أبلغنا السلطات البلدية عن تواجدها و أهميتها التاريخية و الأثرية بحيث تعد طبانة حلق الوادي الطبانة الوحيدة المتبقية خارج أسوار المدينة .و شرع الديوان الوطني لحماية و تسيير الممتلكات الثقافية المحمية بالاشتراك مع أساتذة من معهد الآثار في هذه المهمة بعملية التنظيف و إظهار الكثير من جوانب هذا المعلم الأثري البالغ في الأهمية ، مثل الأرضية الأصلية ، و فتحات المدفعية ، وحلقات تثبيت المدفع ...الخ .

(1) KLEIN, H, Feuilles d El Djezair, collection du cahier ers du vieil Alger, Alger, 1937.p73

(2) حسب الأقوال الشفوية للسيد عمر نصاح : من بين السكان القدي في الحي .



عمليات تنظيف الأرضية :

كما سوف يتم إدماج طبانة حلق الوادي ضمن تهيئة وادي الحراش ذلك ما وعدنا به من طرف الهيئات المكلفة بهذا الأمر (المديرية العامة للموارد المائية لولاية الجزائر) حيث سوف يتم ترميم هذا المعلم و تهيئة محيطه بمساحات خضراء لكي يتسنى للزائر وبنظرة عصرية ، التعرف علي تراث بلده الغني ففتح هذا المعلم الأثري لعامة الجمهور يعتبر كإعادة الاعتبار له ، وما قدمه من فضل و مقاومة ضد الغزاة المحتلين ، وكذلك يمنح فرصة للباحثين الأثريين و المؤرخين و كذا المهندسين في التعمق أكثر و الاكتشاف للهندسة المعمارية العثمانية بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية .